

مميزات اللغة العربية وصفاتها الصوتية

د. مفتاح محمد محمد عمر البكوش

كلية التربية – جامعة نالوت

Email: drmoftahmohamed@gmail.com

المخلص

هدفت الدراسة إلى الكشف عن مميزات اللغة العربية وصفاتها الصوتية، ولتحقيق ذلك استخدام الباحث المنهج المقارن، والمنهج التاريخي لتحقيق أهداف الدراسة. وقد تناولت الدراسة مميزات اللغة العربية من الناحية الصوتية وكذلك إبراز مترادفات اللغة العربية من خلال الوقوف على المخارج الصوتية ودلالاتها اللغوية، وبينت الدراسة بالتحليل أسباب كثرة المفردات والمترادفات في اللغة العربية، وختمت الدراسة بنموذج من إسهامات بعض علماء العرب القدامى في دراسة مخارج الحروف، وتوصلت الدراسة إلى النتائج التالية: إن من صفات اللغة العربية دقة قواعدها، وغزارة مفرداتها ، وقوتها في الأداء والبلاغة ، ولم تعجز اللغة العربية في مواجهة التغيرات الجديدة.

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية، مخارجها، أصواتها، مفرداتها، مترادفات.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

ترجع عناصر أية لغة إلى أمرين : الصوت والدلالة ، وتتكون الدلالة من معاني وقواعد التنظيم (النحو) وقواعد البنية (الصرف)، وقواعد الأسلوب (البلاغة)، فقد جذبت الأصوات اللغوية العرب الأوائل عند انتشار الإسلام ودخول الشعوب غير العربية في الإسلام ، مما أدى إلى امتزاج العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى التي اعتنقت الدين الإسلامي ، فوقع التأثير والتأثر، وزاغت الألسن عما كانت عليه من فصاحة تامة وسليقة سليمة بتأثير هذا الاختلاط ، فشاب أصوات العربية شيء من لكنات أعجمية وبخاصة ممن ولدوا من أمهات غير عربيات ، حيث اختلف نطقهم لبعض الحروف العربية ، فخشي العلماء أن يعم ذلك الانحراف في نطق أصوات اللغة العربية لسان أبنائها عامة ، وبخاصة عند قراءة القرآن الكريم ، لما في ذلك من تحريف للأداء الصحيح للقراءات القرآنية ، فقام نحاة العربية بدراسة الأصوات العربية في وقت مبكر وخصصوا أبواباً مستقلة في كتبهم لهذه الدراسة ، ولم يدرسوها لذاتها ، وإنما وجدوا أن الدراسة لا تكتمل، والفهم لا يتم للعربية بنحوها وصرفها دون دراسة علم الأصوات اللغوية ، وتحدثوا حول الإبدال والإعلال والإدغام والإمالة ، كما أسهم علماء البلاغة والبيان بقسط من الدراسات الصوتية وذلك عند إشاراتهم إلى تنافر الأصوات وإتلافها ، من خلال تعرضهم لشروط الفصاحة ، وتحديثهم حول التنعيم وحسن البيان ، وتعرض أصحاب المعاجم اللغوية لبعض القضايا الصوتية في مقدمات معاجمهم أو في ثنايا المادة اللغوية ، يضاف إلى ذلك عناية بعضهم بترتيب الألفاظ ترتيباً صوتياً واتباعهم لنظام التقليبات الصوتية ، كم فعل ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي وغيره.

ودرس علماء العروض أوزان الشعر العربي وموسيقاه، فتعرضوا للمقاطع الصوتية عند تقطيعهم للأشعار كما ألمحوا للنبر في بعض المقاطع، أما علماء التجويد والقراءات القرآنية فكان لهم الحظ الوافر في تلك الدراسات الصوتية، حيث أصبح كل كتاب أو نظم لعلم التجويد بيدوه صاحبه بمخارج الحروف العربية وصفاتها كما فعل ابن الجزري في (المقدمة الجزرية)، و(كتاب النشر في القراءات العشر). ونتناول في هذه الدراسة إن شاء الله تعالى مميزات اللغة العربية

وصفاتها الصوتية مع إظهار مترادفاتهما واختلاف الآراء فيها. نسأل الله أن يوفقنا إلى الخير والساد.

مباحث الدراسة:

المبحث الأول : مميزات اللغة العربية وصفاتها الصوتية.

❖ المطلب الأول: مميزات اللغة العربية.

❖ المطلب الثاني: اللغة العربية مخارجها ومترادفاتهما وصفاتها الصوتية.

❖ المطلب الثالث: الأصوات والدلالة اللغوية.

❖ المطلب الرابع: مترادفات اللغة العربية واختلاف الآراء فيها.

❖ المطلب الخامس: أسباب كثرة المفردات والمترادفات.

المبحث الثاني: إسهامات بعض علماء العرب القدامى في دراسة مخارج الحروف.

❖ المطلب الأول: الخليل بن أحمد الفراهيدي.

❖ المطلب الثاني: سيبويه.

مشكلة البحث:

إن مشكلة البحث العلمي هي عبارة عن التساؤلات التي من شأنها أن تتشكل في ذهن الباحث العلمي، ولا سيما أن مشكلة الدراسة قد تنتج عن خلل في موضوع علمي معين ويحتاج إلى توضيح أسباب وعوامل حدوثه، وذلك بالبحث من أجل الوصول إلى حلول لتلك المشكلة.

تساؤلات البحث:

س1: ماهي مميزات اللغة العربية المعاصرة؟.

س2: ماهي إسهامات علماء العرب القدامى في دراسة الحروف؟.

الدراسات السابقة:

1- اللغة العربية ومعناها ومبناها، 1979، المؤلف الدكتور تمام حسان.

2- التفكير اللساني في الحضارة العربية، 1981، المؤلف الدكتور عبد السلام المسدي.

فالدرس اللساني العربي المقترح لا يمكن أن يكون صحيحاً من وجهة نظري ما لم يكن مسبقاً بكشف دقيق لإنجازات علماء اللغة العربية في كل مجال من مجالات درسها. وفي هذه الدراسة

سيتم الوقوف على بعض الجوانب المساهمة في إظهار ولو جزء بسيط من كنوز اللغة العربية وصفاتها الصوتية.

منهج الدراسة:

- تنتهج دراستنا المنهج المقارن الذي يختص بدراسة العلاقات التاريخية بين لغتين أو أكثر ضمن أسرة لغوية واحدة.
- المنهج التاريخي، ويختص هذا المنهج بدراسة التطور اللغوي عبر الزمن من خلال الوقوف على التطور الاجتماعي والثقافي والعلمي وكل المعطيات المؤثرة في اللغة، كدراسة تطور الأصوات في اللغة المعينة عبر الزمن، فالمنهج التاريخي هو وسيلة لتأريخ اللغة وظواهرها ورصد حياتها من عصر إلى آخر.

أهمية الدراسة:

تركز أهمية الدراسة على الآتي:

- 1- إظهار ميزات اللغة العربية من الناحية الصوتية.
- 2- الوقوف على آراء علماء اللغة العربية القدامى.
- 3- إبراز مترادفات اللغة العربية.

أهداف الدراسة:

- 1- التعرف على مفهوم اللغة العربية المعاصرة وصفاتها.
- 2- إظهار جهود علماء اللغة العربية القدامى في مجال علم الأصوات اللغوية.

توصيات الدراسة:

- 1- توصي الدراسة الباحثون على دراسة النظم الصوتية في اللغة العربية بشكل دقيق.
- 2- العمل على إظهار الأسس السليمة للغة العربية من خلال البحث عن أصول نشأتها وجذورها عبر التاريخ.
- 3- الدعوة إلى التدبر في معاني وألفاظ القرآن الكريم.
- 4- حث الباحثين على العمل والتدقيق في معاني الكلمات العربية من حيث مخارجها ونطقها الصحيح.

المبحث الأول: مميزات اللغة العربية وصفاتها الصوتية

❖ تمهيد:

يتوفر في اللغة العربية عاملان لم يتوافرا لغيرها من اللغات السامية، أحدها أنها نشأت في أقدم مواطن الساميين؛ والآخر أن الموقع الجغرافي في الموطن قد ساعد على بقائها حيناً من الدهر متمتعة باستقلالها وعزلتها. وكان من أثر هذين العاملين أن احتفظت بأكبر قدر من مقومات اللسان السامي الأول، وبقي فيها من تراث هذا اللسان ماتجردت منه أخواتها السامية.

❖ المطلب الأول - مميزات اللغة العربية:

1- أنها أكثر أخواتها احتفاظاً بالأصوات السامية. فقد اشتملت على جميع الأصوات التي اشتملت عليها أخواتها السامية⁽¹⁾، وزدات عليها بأصوات كثيرة لاوجود لها في واحدة منها : الغين والذال والضاد.

2- أنها أوسع أخواتها جميعاً وأدقها في قواعد النحو والصرف، فجميع القواعد التي تشتمل عليها اللغات السامية الأخرى توجد لها نظائر في العربية، بينما تشتمل العربية على قواعد كثيرة لا نظير لها في واحدة منها أو توجد في بعضها في صورة بدائية ناقصة⁽²⁾.

3- أنها أوسع أخواتها ثروة في أصول الكلمات والمفردات. فهي تشتمل على جميع الأصول التي تشتمل عليها أخواتها السامية أو على معظمها، وتزيد عليها بأصول كثيرة احتفظت بها من اللسان السامي الأول ولا يوجد لها نظير في أية أخت من أخواتها، هذا إلى أنه قد تجمع فيها من المفردات في مختلف أنواع الكلمة اسمها وفعلها وحرفها ما لم يتجمع مثله للغة سامية أخرى⁽³⁾.

❖ المطلب الثاني - اللغة العربية مخارجها ومترادفاتها وصفاتها الصوتية:

للأصوات العربية نحو خمسة عشر مخرجاً ، وهي:

- المخارج الجوفية والحلقية ، وعددها أربعة مخارج: الجوف مع الحلق لأحرف المد الثلاثة ، فهي تخرج من الصدر والحلق، وتنتهي إلى خارج الفم ؛ وأقصى الحلق للهمزة والهاء ، والهمزة أدخل في ذلك من الهاء ؛ ووسط الحلق للعين والحاء ، والعين أدخل في ذلك من الحاء ، وأدنى الحلق

(1) عبدالواحد وافي ، ص:220.

(2) السابق ، ص:21.

(3) السابق ، ص:22.

للغين والحاء، والغين أدخل في ذلك من الخاء. فالصدر مع الحلق يتكون منهما مخرج لثلاثة أصوات، والحلق وحده يشتمل على ثلاثة مخارج لكل مخرج منهما صوتان.

- المخارج اللسانية، وهي تسعة مخارج: أقصى اللسان مع مافوقه من الحنك للقاف والكاف، غير أن الكاف أسفل من القاف وأقرب إلى الفم؛ ووسطه مع مايقابله من أعلى الحنك للجيم والشين والياء التي ليست حرف مد، غير أن الجيم أبعدا عن الفم والياء أقربها إليه، وجانبه مع الأضراس الطواحن الثلاث للضاد، وجانب طرفه الواقع بعد مخرج الضاد لي منتهاه مع مايقابل هذا الجانب من الحنك للام؛ وظهر طرفه من لثة الثنيتين العلئيين للراء؛ وظهر طرفه مع لثة الثنيتين العلئيين مع الخيشوم للنون، فالمخرج اللساني للراء والنون واحد، غير أن الراء أدخل في ظهر اللسان من النون ولا تعتمد على الخيشوم كما تعتمد عليه النون؛ وفوق مع أصول الثنيتين العلئيين للطاء والذال وفوق طرفه مع طرف الثنيتين العلئيين للطاء والذال والطاء؛ وفوق طرفه مع الثنيتين السفليين للصاد والسين والزاي. فـللـسان ثمانية عشر صوتاً موزعة على تسعة مخارج.

- المخارج الشفوية، وعددها مخرجان: باطن الشفة السفلي مع طرف الثنيتين العلئيين للفاء، وما بين الشفتين للباء والميم والواو التي ليست حرف مد، غير أن الواو تخرج من بين الشفتين مع انفتاحهما؛ والميم والباء تخرجان مع انطباقهما، وتختلف الميم عن الباء في أن الأولى تعتمد على الخيشوم في حين أن الثانية لا تعتمد عليه. والوسيلة السريعة لمعرفة مخرج أي صوت هي أن تأتي بهمة قبله ثم تنطق به ساكناً أو مشدداً؛ فحيث ينقطع الصوت يكون مخرج الحرف (4)

• المطلب الثالث - الأصوات والدلالة اللغوية:

لا تقتصر الجهود القديمة في الأصوات على بيان المخارج الصوتية والصفات التي تتميز بين الحروف، وما يتصل بذلك من جوانب معجمية أو صرفية أو بلاغية، إنما يتعدى ذلك على سعته وعمقه إلى تطبيق للمعارف الصوتية على دلالة الألفاظ من خلال التقابل بين الأصوات التي تؤلف الكلمات، والمعاني التي تشير إليها هذه الكلمات.

(4) محب الدين الخطيب، ص: 45.

وأشهر من عُرف بهذا النحو من التطبيق هو ابن جني الذي درس في كتابه (الخصائص) أهم مايتصل بفقّه اللغة دراسة دقيقة فيها الكثير من الإبداع والسبق. وتجدر الإشارة إلى أن ابن جني حيث تحدث عن أصل اللغة ألّهام هي أم اصطلاح ؟، ذكر أن هناك رأياً يذهب إلى أن أصل اللغات إنما هو من الأصوات المسموعة ، ويقل في هذا الصدد : وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلاً إنما هو الأصوات المسموعات كدوي الريح ، وحنين الرعد ، وخير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الطيبي ، ونحو ذلك . ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد متقبلاً⁽⁵⁾.

ويبدو أن ابن جني لم يكن يعرض على السياق الذي ذكرناه مجرد رأي من الآراء بل كان فضلاً عن قبوله له يعني بتتبع أمثله ، وبتوسع في مجالات تطبيقه ، وهذا ما فعله في مواضع كثيرة مبثوثة في كتابه ، وأهمها بابان هما (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) و(إمساس الألفاظ أشباه المعاني).

ولابد من الإشارة قبل أن نعرض أمثلة ابن جني إلى أن هذا الضرب من الألفاظ العربية التي تحاكي الطبيعة له مايمثله في جميع اللغات ، ويرجع السبب في ذلك إلى النشأة الأولى للغة ، فالرأي الراجح لدى بعض المحدثين أن اللغة الإنسانية قد نشأت من محاكاة الإنسان للأصوات التي تصدر من الحيوانات والأشياء ، ولأصوات التي تحدثها الأفعال عند وقوعها⁽⁶⁾. وقد عرفت هذه النظرة بنظرية المحاكاة الصوتية ، وهي إحدى النظريات المعروفة في بحث نشأة اللغات.

يبدأ ابن جني حديثه في (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني)⁽⁷⁾، بالإشارة إلى أن الخليل وسيبويه قد أشارا إلى هذا الموضوع ، وأن الجماعة قد تلقته بالقبول له والاعتراف بصحته ، وليس ذلك على الخليل وسيبويه بمستكر ، فالباحث فيما أثر عنهما خاطفة ، لأنهما يفتحان الطريق وحسبهما أن يصفيا المعالم ويحدّدا المبادي. حتى جاء اللغويون التالون وفيهم العبقري كابن جني انتزعوا الإشارات العابرة من كلام الإمامين ومن هذا حذوهما من المتقدمين ، وبنوا عليها فصولاً شارحة وأبواباً مطولة ، وهذا ما فعله ابن جني في كثير مما عرض له في جهوده اللغوية الواسعة.

(5) ابن جني، الخصائص، ص: 47.

(6) عبدالواحد وافي ، ص: 177.

(7) ابن جني ، مصدر سابق، ص: 168.

فالفكرة التي أوردها ابن جني حول التقابل بين الألفاظ وماتدل عليه من الأحداث هي فكرة الخليل ابن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيبويه ، فالخليل ذكر أنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً، فقالوا : صرّ، وتوهموا في صوت البازي تقطعياً فقالوا صرصر ، على حين سيبويه لاحظ أن المصادر التي تأتي على وزن (الفعلان) تدل على الاضطراب والحركة ، نحو الغليان والنقران فقابلوا بتوالي حركات المثال "البناء" توالي حركات الأفعال (8). ومن الجدير بالذكر أن بعض الدارسين تلقوا رأي ابن جني في نشأة اللغة العربية من الأصوات بالقبول ، وراحوا يطبقون ذلك على الأصول المعجمية التي بُنيت في أول أمرها على أصل ثنائي محاكاة لأصوات الطبيعة (9)، وأبرز هؤلاء هو ماري الكرملي الذي أولع بهذا الرأي منذ "1881" حتى عرف به ، ونقل عنه. ويذهب الكرملي إلى أن الكلم وضعت في أول أمرها على هجاء واحد ، (متحول وساكن) محاكاة لأصوات الطبيعة ، ثم فُئمت (أي زيد فيها حرف أو أكثر في الصدر أو القلب أو الطرف). فتصرف المتكلمون بها تصرفاً ، يختلف باختلاف البلاد والقبائل والبيئات (10) ، ثم راح يحاول إثبات رايه بما قرأه من كلام اللغويين القدامى في تضاعيف المعاجم كالتهذيب واللسان والقاموس والتاج ، فمن أمثلة الأزهرى أنهم يقولون : صَهْصَه بهم ، إذا زجرهم وهو من صه وهي كلمة زجر للسكوت ، ومن أمثلة اللسان أنهم يقولون : صرّ العصفور، إذا صاح ، وصرّ الجندب، وصرّ الباب وكلّ صوت شبه ذلك فهو صرصر إذا امتدّ . أما إذا كان فيه تخفيف وترجيع في إعادة ضوعف ، كقولهم : صرصر. ومن أمثلة القاموس والتاج : مأمأت الشاة والطبية ، إذا واصلت صوتها فقالت مئ مئ (11).

ولما كان أمر نشأة اللغة العربية راجعاً إلى محاكاة أصوات الطبيعة لم يجد الكرملي بأساً في أن يتفق اصطلاح العرب واصطلاح الغرب ، إذا اتفق الخاطران في توهم صوت الطبيعة ، ولا يكون هذا الأمر إلا إذا كان هناك هجاء واحد أو هجاءان اثنان لأكثر . من ذلك قول العرب "ردّ" وأصله الثنائي "ردّ" وهو في اللاتينة "Reddere" وقد وظف الكرملي بحثه لإثبات الأصل العربي للغات جميعاً . ولم ينس الكرملي وهو يسعى لإثبات نظريته أن يقف على بعض الأمثلة

(8) سيبويه ،ص: 14.

(9) مصطفى الشهابي ، ص: 11-12.

(10) انستاس ماري الكرملي ، ص: 1.

(11) الكرملي : مصدر سابق ، ص: 10-11.

السامية ففي السريانية والعبرية أفعال مخففة ساكنة الأواخر جرياً على الحكاية الأصلية ، لأن الذي سمع قرع جسم بآخر مثلاً سمع شيئاً يحاك "دق" بالإسكان ، فحكاه بصورته مخففاً⁽¹²⁾. وهكذا نرى أن القول بنشأة اللغة محاكاة للأصوات الطبيعية جعل الباحث يغوص في نشأة الأصول المعجمية ، فيتمسك بالثنائية ، ويعتقد بوحدة الوضع اللغوي وانبثاقه من العربية ، ومن الصعب أن يسلم الدارس بما جاء لدى الكرمل من الأصل الثنائي ووحدة الوضع جميعاً ، لأن ما ذهب إليه يفنر إلى الكثير من الأدلة العلمية ، فليس كافياً أن يعرض عدداً من الأمثلة التي تحكي أصواتاً طبيعية كم ينتهي إلى القول القاطع بنشأة اللغات جميعها من المحاكاة الصوتية ، وأمر الثنائية من بعد ليس جديداً فقد عرفه القدماء على أنحاء مختلفة ، ولم يفوا متلبين لقلّة جدواه العلمية⁽¹³⁾.

❖ المطلب الرابع - مترادفات اللغة العربية واختلاف الآراء فيها:

تجتمع في اللغة العربية المترادفات في الأسماء والصفات والافعال مالم يجتمع مثله للغة سامية أخرى ، فقد جمع للأسد خمسمائة اسم ، وللتعبان مائتا اسم ، وكتب الفيروز ابادي صاحب القاموس المحيط كتاباً في أسماء العسل فذكر له أكثر من ثمانين اسماً ، وقرر مع ذلك أنه لم يستوعبها جميعها . ويرى الفيروز ابادي أنه يوجد للسيف في العربية ألف اسم على الأقل ، ويقرر آخرون أنه يوجد أكثر من أربعمائة اسم للداهية ، ويوجد لكل من المطر والريح والنور والظلام والناقة والحجر والماء والبئر أسماء تبلغ العشرين اسماً وتصل إلى ثلثمائة في بعضها الآخر. وفي ذلك تختلف العربية الفصحى اختلافاً كبيراً عن اللهجات العامة الحديثة المنشعبة عنها. فمتون هذه اللهجات العامية الحديثة ضيقة كل الضيق لاتكاد تشتمل على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادي وتكاد تكون مجردة من المترادفات⁽¹⁴⁾. وقد كان من أحد الأسباب التي حملت بعض الباحثين على أن يقف حيال مفردات اللغة العربية موقف الشك الذي وقفه آخرون حيال قواعدها⁽¹⁵⁾، فزعم أنه لايبعد أن يكون جامعوا المعجمات قد خلقوا كثيراً من هذه المفردات خلقاً لحاجات في نفوسهم .وفساد هذا الرأي لايجتاج إلى بيان.

(12) السابق: ص:12.

(13) سعيد الأفغاني : ص:134.

(14) مصدر سابق، ص: 148.

(15) السابق ، ص: 210.

فلهجات المحادثة في جميع الأمم تقتصر في العادة على الضروري وتنفرد من الكمال، وتتأى عن مظاهر الترف في المترادفات وما إلى ذلك، ولذلك تتسع دائماً هوة الخلاف بينها وبين اللغة الفصحى في هذه الناحية. فليست العربية فذة في هذا الباب، بل تشترك معها فيه جميع لغات الآداب أو اللغات الفصحى. وإليك مثلاً الفرنسية الفصحى أو لغة الكتابة، واللغة الفرنسية في التخاطب العادي تختلف عن بعضها، مثلما الفرق بين العربية الفصحى واللهجات العامية الحديثة المتفرعة منها.

أما جامعو المعجمات فيدلنا التاريخ وتدلنا آثارهم على شدة حرصهم على تحرى الحق. فقد استخلصوا معظم ما اشتملت عليه معجاتهم من كتاب الله الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ومن أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ومن الآثار العربية في العصر الجاهلي والعصور الإسلامية الأولى، واستخلصوا بعضه من العرب المعاصرين لهم. وكانوا شديدي الحيلة في هذه الناحية إلى حد الإفراط. فكانوا يتحاشون الأخذ بمن تشوب عربيته أية شائبة. ولذلك كانوا لا يكادون يأخذون إلا عن عرب البادية لفصاحة ألسنتهم وبُعد لهجاتهم عن التأثير باللغات الأعجمية وعزلتهم وقلة احتكاكهم بغيرهم، فكانوا يترقبون مجيء أعراب البادية إلى المدن في التجارة أو غيرها. فيستمعون إلى حديثهم ويناقشونهم في مختلف شؤون اللغة، ويدونون من فورهم كل ما يهديهم إليه هذا الحديث وترشدهم إليه هذه المناقشة بصدد مفردات اللغة ودلالاتها ووجوه استخدامها⁽¹⁶⁾.

ويقول الفارابي⁽¹⁷⁾، في كتابه الألفاظ والحروف، والذين عنهم نقلت اللغة العربية بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجمله فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا من لحم وحذام لمجاورتهم أهل مصر والقط، ولا من قضاة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرية ولا من تغلب لمجاورتهم الروم ولا من بكر لمجاورتهم الروم ولا من بكر لمجاورتهم للنبط⁽¹⁸⁾ والفرس ولا عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين لأهل فارس والهند، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم تجار الحبشة والهند، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة وثقيف وأهل الطائف

(16) عبد الواحد وافي، مصدر سابق، ص: 43.

(17) أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي، صاحب معجم الصحاح.

(18) في الأصل (القط) وصوابه (النبط) كما لا يخفى.

لمخالطتهم تجار اليمن من المعنيين وغيرهم وقربهم من الجاليات اليمنية ، ولا من حواضر الحجاز لأن السنة أهلها كانت قد فسدت حينئذ لامتزاجهم بأمم كثيرة (19).

ويقول ابن خلدون " وكانت لغة قريش أفصح اللغات وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتها ، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم فأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغاتهم تامة الملكة لمخالطة الأعاجم . وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية (20). وما اتخذوه من وسائل الحيلة حيال القبائل والأمنكة اتخذوه حيال الأزمنة والعصور . فلم يأخذوا إلا من العصور التي كان فيها اللسان العربي سليماً لم يصبه بعد تبلبل أعجمي ولا انحراف عن أوضاع اللغة الفصحى ، ولذلك لم يأخذوا إلا عن عرب الجاهلية والإسلام إلى نهاية القرن الثاني الهجري بالنسبة إلى فصحاء الحضر وإلى أواسط القرن الرابع بالنسبة إلى فصحاء البادية ، وسموا هذه العصور " عصور الاحتجاج " وأهملوا ماعداها مبالغة في الدقة وحرصاً على تحرى وجوه الصدق واليقين.

❖ المطلب الخامس - أسباب كثرة المفردات والمترادفات :

- إن طول احتكاك لغة قريش باللهجات العربية الأخرى قد نقل إليها طائفة كبيرة من مفردات اللهجات ولم تقف لغة قريش في اقتباسها هذا عند الأمور التي كانت تعوزها ، بل انتقل إليها كذلك من اللهجات كثير من المفردات والصيغ التي لم تكن في حاجة إليها لوجود نظائرها في متنها الأصلي، فعززت من جراء ذلك مفرداتها وكثرت المترادفات في الأسماء والأوصاف والصيغ ، وأصبحت الحالة التي انتهت إليها أشبه شيء ببخيرة امتزج بمياهها الأصلية مياه أخرى انحدرت إليها من جداول كثيرة (21).
- إن جامعي المعجمات لم يأخذوا عن قريش وحدها بل أخذوا كذلك عن قبائل أخرى كثيرة ، وكان من جراء ذلك أن اشتملت المعجمات على مفردات لم تكن مستخدمة في لغة قريش ويوجد لمعظمها مترادفات في متن هذه اللغة الأصلي (22) وفيما انتقل إليها من غيرها ، فزاد هذا من نطاق المفردات والمترادفات في المعجمات سعة على سعة أكثر.

(19) السيوطي ، ص: 104.

(20) ابن خلدون ص: 1389. الجزء الرابع.

(21) عبدالواحد وافي، مصدر سابق، ص: 115.

(22) مصدر السابق، ص: 170.

- إن جامعي المعجمات، لشدة حرصهم على تسجيل كل شيء دونوا كلمات كثيرة كانت مهجورة في الاستعمال ومستبدلاً بها مفردات أخرى. فكثرت من جراء ذلك في المعجمات مفردات اللغة ومترادفاتهما.
- إن كثيراً من الكلمات التي تذكرها المعجمات على أنها مرادفة في معانيها لكلمات أخرى غير موضوعة في الأصل لهذه المعاني، بل مستخدمة فيها استخداماً مجازياً⁽²³⁾.
- إن من الأسماء الكثيرة التي يذكرونها للشيء الواحد ليست جميعها في الواقع أسماء، بل معظمها صفات مستخدمة استخدام الأسماء، فكثير من الأسماء المترادفة كانت في الأصل نعوتاً لأحوال المسمى الواحد، ثم تجردت مدلولات هذه النعوت مما كان بينها من فوارق وغلبت عليها الاسمية، فالخطر والباسل والأصيد ... من أسماء الأسد يدل كل منها في الأصل على خاص مغاير لما يدل عليه الآخر. وكذلك ما يعد من أسماء السيف: كالمصمم والهندي والحسام والغضب والقاطع وهلم جرا....
- إن كثيراً من الألفاظ التي تبدو مترادفة هي في الواقع غير مترادفة، بل يدل كل منها على حالة خاصة تختلف بعض الاختلاف عن الحالة التي تدل عليها غيره، وإليك مثلاً: رمق ولحظ وحج وشفن ورنا ... وما إلى ذلك من الألفاظ التي تدل على النظر، فإن كلا منها يعبر عن حالة خاصة للنظر تختلف عن الحالات التي تدل عليها الألفاظ الأخرى، فرمق يدل على النظر بمجامع العين، ولحظ عن النظر من جانب الأذن، وحججه معناه رماه ببصره مع حدة، وشفن يدل على نظر المتعجب الكاره، ورنا يفيد أدامة النظر في سكون⁽²⁴⁾.
- إنه قد انتقل إلى اللغة العربية من أخواتها السامية وغيرها مفردات كثيرة، كان لها نظائر في متنها الأصلي⁽²⁵⁾. هذا ، ومع ماكان يتخذه جامعو المعجمات من وسائل الحيلة والحرص على تحرى الصواب ، فقد اندس في معجماتهم كثير من المفردات المولدة وبعض الكلمات المشكوك في عربيتها ، وحُرِفَتْ فيها كلمات كثيرة عن أوضاعها الصحيحة ، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة أهمها سببان:

(23) ابن خلدون، مصدر سابق، ص1381 من الجزء الرابع.

(24) الثعالبي، ص: 123.

(25) السيوطي، ص: 127.

❖ (أحدهما) أن بعض الأشعار التي أخذوا عنها قد ثبت فيما بعد أنها موضوعة. فلا يبعد أن يكون بعض مفرداتها من اختراع الواضعين.

❖ (وثانيهما) أنهم كانوا أحياناً يأخذون عن الكتب والصحف. فحدث من جراء ذلك تحريف في كثير من الكلمات التي نقلوها؛ لأن الرسم في عصورهم كان مجرداً من الاعجام والشكل. فكان من الممكن أحياناً قراءة الكلمة الواحدة على عدة وجوه.

المبحث الثاني: إسهامات بعض علماء العرب القدامى في دراسة مخارج الحروف

❖ **تمهيد:**

وردت مصطلحات صوتية كثيرة عند علماء العرب القدامى منها الإشمام والإشباع ، والروم والإمالة ، والإظهار ، والإخفاء ، والاختلاس ، والمد بأنواعه والوقف والابتداء ، وترقيق الأصوات وتقويمها بالإضافة إلى وضعهم طريقة النطق للأصوات العربية ومخارجها منتبعين في ذلك ما حدده الخليل بن أحمد وسيبويه ، ومن بعدهما ابن جني ، ولم يزد علماء القراءات على ذلك شيئاً ، والسبب هو انشغالهم بذكر سند القراءات واعتمادهم على تلقينها وضبطها عن طريقة المشافهة . وفيما يلي عرض لبعض الجهود التي بذلها علماء اللغة العربية القدامى في مجال علم الأصوات اللغوية ، ونقصرها على جهود اثنين من علماء العرب ، تعد دراساتهم من أهم الدراسات الصوتية القديمة وهم : الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه.

❖ **المطلب الأول - الخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفي سنة 175هـ).**

قام هذا العالم المبدع بترتيب معجمه "العين" ترتيباً صوتياً ، وعمل له مقدمة حلل فيها أصوات اللغة العربية تحليلاً علمياً ، وحدد فيها مخارج الحروف وصفاتها ، وتعد المقدمة أقدم مادة صوتية تصل إلينا من ذلك العصر .

وطريقة ذوقه للأصوات اللغوية هو أنه : كان يفتح فاه بالألف ثم يظهر الحرف بنحو (أب آت آخ أع أغ) ، فوجد العين أدخل الحروف في الحلق ، فجعلها أول الكتاب ثم ما قرب منها الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها وهو الميم ⁽²⁶⁾. فيظهر من هذا النص أنه استعمل طريقة جديدة لمعرفة مخرج الصوت بصورة دقيقة وذلك بإضافة همزة مفتوحة كي يخرج الصوت ساكناً حتي لا يختلط بغيره من الأصوات الأخرى.

(26) الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ص: 47.

كما يظهر النص مقدرة الخليل وعلمه بتركيب الجهاز الصوتي ، وما يتألف من أحياز ومدارج ، فاستطاع بما يمتلك من قدرة على الإبداع وقابلية كبيرة على تدقيق الأصوات وأدائها بشكلها الصحيح أن يحدد المخارج وسماها أحيازاً ومدارج ورتبها على النحو الآتي :

1- ع ، ح ، هـ ، خ ، غ.

2- ق ، ك.

3- ج ، ش ، ض.

4- ص ، س ، ز.

5- ط ، د ، ت.

6- ظ ، ذ ، ث.

7- ر ، ل ، ن.

8- ف ، ب ، م.

9- و ، ا ، ي ، الهمزة .

ومن الملاحظ أن الخليل بدأ معجمه بحرف العين لا لأنه أبعد الحروف مخرجاً، بل لأنه أول الحروف نضاعة وتباتاً كما يظهر من قوله الذي نقله السيوطي عن ابن كيسان حيث قال : "سمعت من يذكر عن الخليل أنه قال : لم يبدأ بالهمزة ، لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف ، ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء كلمة ولا في اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة ، ولا بالهاء لأنها مهوسة خفية لا صوت لها ، فنزلت إلى الحيز الثاني ، وفيه العين والحاء ، فوجدت العين أنصع الحرفين ، فابتدأت به لتكون أحسن في التأليف وليس العلم بتقديم شيء على شيء ، لأنه كله مما يحتاج إلى معرفته ، فبأي بدأت كان حسناً ، وأولاًها بالتقديم أكثرها تصرفاً (27). ويظهر من النص السابق أن الخليل لم يبدأ معجمه بالهمزة مع أنه يُعدها أول الحروف مخرجاً والسبب في ذلك يتضح من قوله : أما الهمزة فمخرجها في أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة فإذا رُفّه عنها لانت فصارت الياء والواو والألف (28).

(27) السيوطي، ص: 90.

(28) الخليل الفراهيدي، مصدر سابق، ص: 52.

ثم قال بعد ذلك: والهمزة في الهواء لم يكن لها حيز تنسب إليه ⁽²⁹⁾ لذلك نزل - كما قال إلى الحيز الثاني - أي إلى الموضع الآخر الذي فيه العين والحاء ، فاختر العین لأنها أنصع الحرفين فابتدأ معجمه بها . وهذا الترتيب الذي توصل إليه الخليل يعد علمياً اتبع فيه منهجاً صوتياً ، حيث قام بترتيب ألفاظ معجمه على ضو نطق حروف كل لفظة فبدأ بأبعدها مخرجاً أي رتبها بحسب موضع مخارج حروفها عند النطق لا بحسب صورة حروفها في الرسم كما كان معمولاً به في الترتيب الأبجدي أو الهجائي الألفبائي الذي يعتمد على وضع الرموز المتشابهة الصورة بعضها بجوار بعض ، فبعد الألف وضع النساخ الرموز الثلاثة المتشابهة وهي (ب ت ث) ثم (ج ح خ) ثم الحروف المتشابهة برمز (د ذ) ، (ر ز) ثم الرموز المنفردة. وهذا ما قام به النساخ معتمدين في ذلك على ماورثوه من الترتيب السامي القديم الذي كان يعرف بترتيب (أجد ، هوز ..) الذي اشتهر عند الفينيقيين وغيرهم.

❖ المطلب الثاني - سيبويه المتوفي (سنة 180هـ).

جاء بعد الخليل بن أحمد تلميذه سيبويه ، حاول سيبويه أن يكمل ما بدأه أستاذه الخليل في المجال الصوتي فخصص أبواباً من كتابه للمباحث الصوتية ، كما تحدث عن كثير من القضايا الصوتية في ثنيا الأبواب الأخرى وقد تناول فيها كثيراً من المظاهر الصوتية ، فذكر عدد الحروف العربية الأصلية ، قال هي تسعة وعشرون حرفاً وبين مخارجها وصفاتها.

ثم ذكر الحروف الفرعية ، وقسمها على مجموعتين :

• **حروف مستحسنة :** وقال عنها هن فروع وأصلها من التسعة والعشرين ⁽³⁰⁾، وأضاف قائلاً : إنها " تؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار ، وهي : النون الخفيفة ، والهمزة التي بين بين ، والألف التي تمال إمالة شديدة ، والشين التي كالجيم ، والصاد التي تكون كالزاي ، وألف التفخيم ⁽³¹⁾ .

• **حروف مستقبحة:** قال عنها، هي مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضي عربيته ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر، وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالکاف،

(29) السابق، ص: 58.

(30) سيبويه، ص: 432.

(31) السابق، ص: 432.

والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالتاء، والباء التي كالفاء⁽³²⁾.

ولم يضرب سيبويه أمثلة لهذه الحروف الفرعية غير المستحسنة تُبين كيفية نطقها ، وقد يكون السبب في ذلك صعوبة وصف مخارجها بشكل دقيق كما يتضح من قوله :لايتبين إلا بالمشاهدة ، يضاف إلى ذلك عدم وجود رموز خاصة بها عند العرب تساعد على إيضاح كيفية نطقها. وقد يكون السبب في ذلك هو أن هذه الأصوات غير عربية أي أن مصدرها اللغات الأجنبية ، وأنها شاعت في البيئة العربية في القرن الثاني الهجري عند اختلاط العرب بالشعوب الأخرى ، وبخاصة على ألسنة الموالي ، وانتقلت عدواها لبعض العرب ، فنطقوا الأصوات العربية ولكنة أعجمية ، لأن غير العرب لايتمكنون من نطق الحروف العربية من مخارجها الصحيحة ، وذلك تأثراً بما اعتادوا عليه في لغتهم ، لهذا لم يضرب أمثلة توضحها خوفاً من شيوعها بين الناس، وهي التي قال عنها " لاتستحسن في قراءة القرآن ولا في الأشعار⁽³³⁾).

نتائج البحث

- 1- إن من صفات اللغة العربية ، دقة قواعدها ، وغزارة مفرداتها ، وخصب مناهجها في الاشتقاق.
- 2- لم تعجز اللغة العربية في مواجهة التغيرات الجديدة بل اتسعت للعلوم والفنون على اختلاف أنواعها ، فنهضت بالمواد اللغوية والشرعية.
- 3- قوة اللغة العربية في الأداء والبلاغة لاتأتيها من مفرداتها أسماء كانت أم أفعال، وإنما تاتيها من تركيب جملها ومخارجها الصوتية، وطريقة هذا التركيب.
- 4- اللغة العربية هي اللغة الخالدة لأنها لغة القرآن الكريم.

الخاتمة

وصلنا إلى نهاية هذا البحث المتعلق باللغة العربية مخارجها وصفاتها الصوتية ، حاولنا قدر المستطاع تحليل رموزها وحروفها ، وإظهار ميزات التي تعتبر بحر واسع لا تنتهي حدوده ، وكان هدفنا إبراز ولو جزء بسيط من أسرار اللغة العربية ، وراعي أن تكون فكرة البحث مدققة في

(32) السابق، ص:433.

(33) السابق، ص 423.

الأصوات العربية ، وقوفاً على آراء العلماء القدامى من جهاذة اللغة العربية ، وتناولت هذه الدراسة بشكل خاص النظم الصوتية ، وركزت على إبراز مترادفات اللغة العربية المعاصرة. وأرجوا أن أكون قد وفقت في العرض مع شيء من التقصير والكمال لله تعالى وحده ، مع اعتذاري في حالة وجود أخطاء . واتمنى أن يسير الباحثون في مجال اللغة العربية على النهج نفسه في إظهار معايير وأصول اللغة العربية. أسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

المراجع

- 1- علي عبد الواحد وافي، علم اللغة ، 1973 ، ط 7 ، دار النهضة مصر.
- 2- محب الدين الخطيب ، اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب ، 2014، المطبعة السلفية ، القاهرة.
- 3- ابن جني، الخصائص، تحقيق النجار ، 1976، القاهرة.
- 4- سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، 1966، دار العلم القاهرة.
- 5- انستاس ماري الكرمل، نشوء اللغة العربية ونموها واكتهاها، 1938.
- 6- سعيد الأفغاني، في أصول النحو، 1987، المكتب الإسلامي للنشر، بيروت.
- 7- أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي، الألفاظ المستعملة في النطق، 1982، دار المشرق، بيروت.
- 8- جلال الدين السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق: أحمد محمد قاسم، 1976، مطبعة السعادة، القاهرة.
- 9- الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، 1974، الناشر، شركة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
- 10- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، 1989، منشورات دار الهجرة، إيران.
- 11- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، معجم لغوي (القاموس المحيط)، 1989، دار الحديث القاهرة، مصر.
- 12- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، 1979، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب.

13- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون ، 2014 ، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار النهضة ، مصر.

14- مصطفى الشهابي، المصطلحات العلمية، 1995، مكتبة المتنبي للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت. لبنان.